

يوتوبيا الصحراء في روايات إبراهيم الكوني

ثيمات الأنثروبولوجيا والأثنولوجية وتمظهراتها الدينية

The Desert Utopia in the novels of Ibrahim Al-Koni

Themes anthropology, ethnology and religious appearances

بن شريط نصيرة¹*

¹ جامعة الجلفة، الجزائر

wahab22w@gmail.com

تاريخ القبول: 2021/03/21

تاريخ الاستلام: 2021/02/28

ملخص

سكنت ملحمة الصحراء إبراهيم الكوني بمواجسها، وباتت رمالها تتطاير من أحقابها المذهبة، فغطت ذاته المكشوفة، وأمتدت في عمقه وكنينته، ورانت على إبداعه، وظلت معينه الذي لا ينضب، فجسد خلالها رؤاه المستعالية بشطوطها اليوتوبي حين حملها ذاك التمايز الأنثولوجي، ليرسم معالم هوية الأيموهاق بأبعادها السوسيو ثقافية، ويثبت العلاقات التي تربط بين السلالة التارقية بمحيطها الصحراوي، هذا المحيط الذي يعد عالما فسيحا مضيئا غيبته الشعارات الإيديولوجية الحديثة، وما كان الانفتاح على فضاءات الصحراء من قبل إبراهيم الكوني إلا تعريفا بالامتدادات الوجودية المفقودة أنثولوجيا وطوباويا، والتماسا للعوامل الممكنة فيها خيالها وتنظيمها في قوالب سردية.

الكلمات المفتاحية: يوتوبيا، إبراهيم الكوني، الرواية، الصحراء، الطوارق، الأنثولوجيا، الدين.

Abstract :

The desert Epic and her Obsessions was interested by Ibrahim Al-Koni, that the sands began to fly from its golden bases in here self , covering his grieving soul, and expanding in its depth and being, and ranting on his creativity, and his inexhaustible aid remained, during which he embodied his superior visions with its utopian strenuousness when he carried that distinction with its ethnological dimensions, to paint it with its ethnological dimensions. The socio-cultural, and proves the relationships between the

* المؤلف المرسل: بن شريط نصيرة، الايميل: wahab22w@gmail.com

Tuareg dynasty and its desert surroundings, this ocean, which is a spacious and luminous world absent from modern ideological slogans, and the openness to desert spaces by Ibrahim Al-Koni was nothing but an introduction to the existential extensions missing an ethnology and utopia, and a petition to the worlds that are imaginatively possible and their organization in Narrative templates.

Key words: Utopia, Abraham Al-Koni, the novel, the desert, Tuaregs, Ethnology, religion .

مقدمة:

سعى إبراهيم الكوني إلى خلق مخيال سردي متمكن في واقعيته، فبسط تصوراته الفنية الحية المتلافة مع الواقع، واستطاع أن يلامس الفعل الإنساني الممتد في وجوده، وبلغه علوا ارتقى إلى التعبير عن التعالقات والارتباطات الحاصلة بين التصورات التخيلية الممكنة في السرد الحكائي وعوالم الإنسان اللامتناهية، الظاهر منها والمضمر، ولم يخرج بالمخيال السردي عن طبيعته الفنية لمجرد التباهي الفني، بل كان يحمل رسالة قوية تتلاقح فيها الرغبة الفنية مع الصراع الوجودي، فظل يناقش ويحاور من خلال رواياته، وفي الكثير من لقاءاته الفنية والسياسية مشكل هوية التوارق، فاشترأت نفسه ألما بما يحوط به من أمواه ومعيقات حالت دون تحقيقه، واستمر محتفيا به في منابر محلية عربية وعالمية، مراده في ذلك لم شتات أبناء جلدته من الأيموهاق، بغية تأسيس ما ضاع منهم، وقد استلهم كل الحقائق المكانية (الصحراء) والتاريخية والثقافية والأنثولوجية والدينية ليبرر مبتغاه.

وها هنا يمكننا أن نفترض تساؤلات جديدة بأن نبحث عن كنهها: كيف حاول إبراهيم الكوني انطلاقا من إبداعاته وتأملاته أن يعيد صياغة التقاطب الأنثروبولوجي المسكوت عنه، وتوليد غاياته المعرفية والفكرية والسياسية والاقتصادية لمجتمع الصحراء (التوارق)؟ وهل استطاع أن يتمثل مرجعيته الأنثولوجية بكل أبعادها السوسيو ثقافية ؟

الرواية والهوية الصحراوية لدى إبراهيم الكوني:

لا شك أن إيمان إبراهيم الكوني بأن " الرواية كواحدة من التمثيلات التي ينتجها الإنسان تعطي معنى لتجربة تاريخية معينة، فضلا عن دمجها الجماعة التاريخية في الهوية الجماعية الواحدة التي يجري باستمرار سردها وتأويلها " (رفيف رضا صيداوي ، بيروت- لبنان ، 2008، ص102)، فكانت انطلاقته الفنية مدبجة

انطولوجيا مرجعياتها الهوية المتجذرة في رمال الصحراء، مما دفعه إلى تلوين رواياته بصبغة تاريخية محملا إياها وقائع وأحداث ماضية من تاريخ الرجل الأزرق، وقد لعبت الصحراء دورا محوريا في بلورة اختياراته السردية والفكرية والمذهبية، والتي أنتجت مثقفا طبيعيا، لم يكتف بالفن الروائي بل حاول أن يجد لأفكاره موضعا في الواقع، فكانت الصحراء معادلا موضوعيا لديه، أبان عن طموحاته الحية التي تھفو إلى التغيير من عمق الصحراء، وبثها داخل فئات المجتمع القبلي، ولعل علاقة الهوية بالصحراء لها دوافعها التي ترمي إلى تميّطها بالذاكرة الجماعية الضاربة في التاريخ، لأنها تشكل "دوافع حضارية، تحدد علاقة الوعي البشري بماضيه، هذا الماضي الذي يمثل من خلال جزئياته الذاكرة الحية للأمة بشكل عام" (فتحي بوخالفة، الأردن 2010، ص 68)، هذه الهوية التي "باستطاعتها الاستناد إلى مرجعيات موضوعية لفهم النمط الحالي للوجود الإنساني" (فتحي بوخالفة، الأردن 2010، ص 74)، وفضاء الصحراء أقدر على تجسيد الركن المادي للوجود الإنساني، ناهيك عن تأثيل طبيعة عيشه وتجسيمها بكل ألوانها المعنوية والميتافيزيقية. الصحراء الحلم الذي استولى على فكر الكوني فتجسد في أعماله بصورة مفعمة بالغرائبية والعجائبية، فقد كان مهووسا بالفضاء الصحراوي، إذ "تستأثر الصحراء باهتمام منقطع النظير في عالم الكوني الروائي. فغضبها وصفائها وعمتها وأمانها وغدرها يترك أثره الكبير في الأنية السردية بما في ذلك الشخصيات والأحداث واللغة (عبد الله إبراهيم، لبنان 2005 ص 570)، إذ نشأت بين إبراهيم الكوني والصحراء علاقة حميمة، فهي تمثل عنده أهمية كبيرة في نماء الفرد التارقي وتشكيل أحاسيسه وانفعالاته، ولعل رواية "نزيف الحجر" تعد النموذج الروائي الفاضح للكوني عن مدى تعلقه في استقصاء عالم الصحراء، وتجسيد صورة الطوارق التي ينتمي إليها، وتبرز قيمة الرواية في تسليطها الضوء على تيمة الصحراء وفق رؤية رمزية وفلسفية توائم متغيرات الطبيعة الإنسانية، فهو يتحدث عن الصحراء الصماء ليس انقاصا ولا ذما لها، بل تعبير عن تميزها وتفردا في الوجود المكاني بما تحمله من معاني، و في عمقها توحى أيضا بالصلابة والخصوبة والنماء.

أنثروبولوجيا الصحراء وتداعياتها الوجودية:

تمكن إبراهيم الكوني من استنطاق الصحراء، وكشف عن أبعادها المفقودة، وجعل منها مركزا وجوديا، و رواياته تحمل بين طياتها البيئة الصحراوية الحافلة بالمفاجآت وتوقع المعجزات، أنها المتعة التي تستثيره وتجعله

في حيرة مستمرة. فهي تعد الحلقة التي تربط الطبيعي بما وراء الطبيعي، همزة وصل بين الطبيعة المثلثة والطبيعة المخفية، بين الظاهر والمضمّر، أنها تجسد مظاهر عدة تتنافر وتتقاطب، يجتمع فيها المتنافر حينما يراه الراي بالعين المجردة، تمثل الترحال والاستقرار معا، إنها الصحراء تجمع الجحيم والفردوس في آن معا.

ناموس الصحراء النقاء والصفاء، والبعد عن سلطة الرّجس والدنس، فهي الباعثة على الطمأنينة والفرح والانسجام الداخلي، هي الوحدة والانعقاد والعزلة، هي موت قاس، لكنه موت يعيد للطبيعة توازنها الوجودي، لأنه شرط احتفاظ الإنسان بكيّنونته المهددة، لذلك كانت الموت صورة تنداعى بصوفيّتها الوجودية من داخل الصحراء، وتتلاقح فكرة الموت بالحرية لتبين رحلة الإنسان الأبدية التي تأبى الترويض المكاني لفرط ما فيها ناموس طبيعي، يقول في إحدى رواياته: "الحرية هي الصحراء، والصحراء هي الجذب الموت. إذن الحرية هي الموت وكلما انشّق قلبها عن الخاطر الغامض تذكرت السبل المنتظر واستولت عليها الرجفة والنشوة، مع الوقت أصبح الخاطر في القلب مثل الوعد الجسيم سرها" (إبراهيم الكوني، الرئيس للنشر ص 9)، فجاء السبل وحل التحرر الأبدي من العطش، وفجأة وسط الصحراء القاسية تنبثق بقع خضراء شكلت فسيفساء بألوانها الربيعة، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء، فهي تختلف عن كل ما حولها أو بالأحرى ليس بينها وبين ما حولها أية صلة، حتى ليحار الإنسان وينبهر، فيندفع إلى التساؤل، ثم التعجب كيف انفجرت المياه والخضرة في مكان مثل هذا؟.

جاء في رواية "الجوس" للكوني حديثا حواريا على لسان شيخ القادرية الذي وصف الوجود الصحراوي بأنه إقبال على الموت قائلا: "من أراد أن يعيش حرا عليه أن يقبل بالحياة في الجحيم. في الصحراء جحيم جميل لأنه جحيم الحرية، فهنا فقط عليك أن تدفع ثمن الحرية القاسي. عليك أن تتحمل المسؤولية كلها. تواجه الموت في كل لحظة، لأنك لا تنتظر إحسانا من أحد. تنتقل وحدك، وتتقاتل مع الوحوش لتطعم نفسك، وتدافع عن نفسك بنفسك، وتواجه الخطر وحدك وتموت وحدك. كل هذا لأنك اخترت الصراط الصعب؛ صراط العزلة والحرية" (إبراهيم الكوني، المغرب 1991 ، ص 55) ، وهذا تأكيد للطفرة البيوتوبية السردية لدى إبراهيم الكوني، فهو يفلسف الوجود الإنساني في عمق الصحراء، وليس بالضرورة أن يكون كل جحيم جحيما خالصا، فقد يكون هذا الجحيم تمكينا للجميل الذي يسعى له طالبه، وخاصة إذا عاشه في معترك الصحراء.

وإذا كان الموت رفيق الصحراويين "سرّ الصحراويّ أنه لا يخاف الموت. يقال إنّه نزل إلى الحياة بصحبة الموت، وعندما استنشق الهواء وأخذ أول نفس من فتحتي الأنف، توقّف الموت ورفض أن يدخل إلى الجوف. قال للإنسان: أنا أفضل أن أمكث هنا وأنتظر. حفر مأوى بين فتحتي الأنف والشفة العليا، في هذا الضريح يرقد الموت" (المجوس ج 2 ص 182). فإنه هذا من ناموسهم الوجودي الذي يفرض عليهم تقبل واقعهم المرير، وكل تفكير في الخروج عنه يعتبر خطيئة ومساس بكرامة الصحراء.

فتنة الصحراء تعد مسلكا وجوديا وحضاريا، فهي الاستقرار في أبهى صوره رغم ما يمارسه الصحراوي من ترحال إلا أن سياج الرمال يفطر وجوده، ويظل يدوي بطاقته الهلامية ، "في طريق العودة قرر الكاهن أن يعرّج بي على أهل الواحة ليريني المصير الذي آلى إليه القوم يوم خافوا الوصية فباعوا الحرية مقابل الركون إلى الاستقرار. وقف بي على شعبة جبل يطل على حضيض الواحة وخاطبني قائلاً: "انظري! هؤلاء الأغيار الذين ترينهم كانوا يوماً أحراراً. كانوا يوماً اختياراً مثلهم مثل من رأيت في الصحراء. ولكنهم تنكروا للصحراء، تنكروا لناموس الصحراء يوم نزلوا إلى الواحة ليعتنقوا شريعة الاستقرار. ها أنت ترينهم أمواتاً يدفنون أمواتاً بعد أن كانوا أحياء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون!" (إبراهيم الكوني ، بيروت، 2005، ص 201) ، فلا خيار أمام الوصية غير تنفيذها، واحترام أبجدياتها، لأنها جوهر بقائهم، وركن أساس في الحفاظ على سلالتهم المتميزة بجيناتها الآرية، المتهاكمة في طقوسها الصحراوية.

الصحراء في نظر الكوني هي إخلاص لقوانين الطبيعة التي لم تلوّثها الحضارة، أما الحضارة فتجلب معها التنافس في القيم الكمالية الزائدة عن الضرورة، فاسوالد اشبنغلر يرى أن تجاوز الطبيعة والقفز على أركانها الثابتة يشكل نهاية المدنية والحضارة، إذ يعتقد "أن المدنيات تشكل نهاية لا تستطيع أن تقف أمام تحقيقها إرادة أو عقل. مع ذلك تبلغها الحضارات مرة بعد أخرى، مدفوعة بضرورة باطنية" (اسوالد اشبنغلر. بيروت 87/1) ، ولعل الرحلة في الصحراء حين تكون بصفة معنوية فإنها تسقط في المتاهة اللاوجودية "مما يقطع بحساسية الروح المبدعة التي كثيرا ما ترتقي إلى مستوى النبوءة" (إبراهيم الكوني، بيروت، 2012م، ص: 296) ، ويفقد المرتحل فيها بوصلة العودة إلى كنهه، فالرحلة تمثل موتاً أبدياً يخالف موت البشر، فالرحلة مظهر غير طبيعي، ويرى الكوني أن هناك أيديولوجية الرحيل في مقابل أيديولوجية الاستقرار، الإنسان القديم لو تأملنا مسيرة البشرية لوجدنا أنها منذ البدء تنقسم إلى فريقين رئيسيين فريق راحل وفريق

قار، الفريق الراحل لأن المكان يرفضه ليس هو الذي يرفض المكان ولكن لأن المكان يرفضه لأنه مستحيل العيش في مكان لا وجود للماء فيه، هذا شرط، ولهذا لا بد أن يتنقل وعندما يتنقل بما أنه إنسان لا بد أن يلهو بشيء، بماذا يمكن أن يلهو الإنسان المتنقل على الدوام؟ لا يستطيع أن يلهو إلا باستنطاق المجهول، الروح، التفكير يعني التأمل، التأمل ماذا ينتج في العادة؟ ينتج النبوة

الصحراء هي عذراء الطبيعة التي لم يطمثها ترويع المدنية والحضارة، على الرغم مما دنست به رمالها المتوجعة إلا أنها تظل تحفظ كرامتها الوجودية، ويظل معها الصراع الإنساني مستغرقا في لاهتية من الأنثولوجيا المكانية، وهذا الصراع تغذيه الإيديولوجيا المقتية، وهذا يؤثر سلبا على "إن صراع الحدود القصوى هو علامة الوجود الوحيدة في الصحراء" (سعيد الغانمي، المغرب 2000 . ص 15)، فالصحراء حاضنة مكانية لها فرادتها وسطوتها الثقيلة على إنسانها، وقدر هذا الإنسان ومصيره، والرحلة هي لحظة اختراق تاريخية لناموس الصحراء، وهي لحظة تحول في القوانين الإنسانية، إذ تعرج بقدر الإنسان إلى حتمية الانكسار الوجداني.

وقف إبراهيم الكوني على فضاءات باحثا عن سر الوجود الإنساني فيها، مستغرقا في حالات كشف لا تكاد تنتهي إلا لتبدأ كزمن الصحراء الدوري في لاهتية، وهو القائل: "أن توجد الصحراء يعني بديها حضور كل الأوطان، بل وحضور الدنيا! هذا يعني أن على الناس أن يعلموا مرة واحدة وإلى الأبد أنني لا أكتب عن الصحراء كصحراء، ولكنني أكتب عن الصحراء كاستعارة للوجود الإنساني بأسره" (إبراهيم الكوني، ص: 302)، ويقول أيضا: "الصحراء معلم حكيم لم نستمع إليه طول حياتنا، لأننا كنا مشغولين بتنفيذ أوامر النفس التي لا تأمر إلا بالسوء" (إبراهيم الكوني ، 1991م، ص: 137) ، فهي مظهر الوجود الإنساني، ومبتغى الإنسان الأخلاقي في تمثيل قيمه العليا. وله في ذلك سرد جميل يجسد خلاله البعد الإنساني للصحراء، يقول: "يقال إن التنافس بين الواحيتين كثيرا ما أدى إلى نزاعات خطيرة...ولكن لم يحدث ولا مرة أن استغلت (آدري الشمال) حظوتها فاستخدمت ضد جارتها سلاح المياه لتميتها ظمأ. والفضل في التحلي بهذه البطولة لا يرجع إلى روح التسامح بقدر ما يرجع إلى روح الأوائل الذين يرون أن منع الماء عن خصم (حتى لو كان أعدى عدو) ليس جرما في حق الناموس الأرضي، ولكنه إنكار للناموس السماوي" (إبراهيم الكوني، بيروت ، 2008م ، ص: 62) ، دستور الصحراء متوازن، يطوي في داخله الحق العام، ويفرض منطق بصرامة حادة تأبى تجاوز الناموس الطبيعي.

مملكة الصحراء لدى إبراهيم الكوني تجسد مبدأها اليوتوبي، وهذا المكون اليوتوبي يحتاج إلى فهم قوانين عدة تتمثل فيها نواحي تاريخية، اجتماعية، دينية، واثنوبولوجية، وأثنولوجية، ولكي يأخذ البعد الإنساني شكله اليوتوبي في الصحراء، ومن أجل تماسك الجميع، لا بد أن يكون ثمة محرك يدفع مشاعرهم للالتفاف حول رمز يقرب ما بينهم، مثل التأثير الطقسي في رابطة الدم، يقول: "هذا هو العهد، حضان القربان وميثاق الدم واللعنة سوف تلاحق من تسول له نفسه أن يخون رباط الدم.. فلا يوجد في الدنيا أقوى من رباط الدم وليس هناك جريمة أبشع من خيانة هذا الرباط" (إبراهيم الكوني، 1990، ص 111- 112)، جعل من رباط الدم مثال على تجسيد الأخوة في الصحراء، وهذه الأخوة تشد أوصالها رابطة المكان (الصحراء)، فلا يجوز أن يحتقن الدم ولا تزهق الأرواح ولا يطالها الدنس، لأنها محمية برابطة الدم الصحراوي، ولعل هذه الرابطة الأثنولوجية توحى بالقيم السامية للسلالة التارقية، وهي أيضا حث صريح للشمول والالتفاف حول القضايا الراهنة وتحدياتها، بغية الحفاظ على صفاء النسل التارقي ونقاؤه.

الصحراء فضاءً أسطورياً:

كانت الصحراء مهداً للحكايات العجيبة والأساطير، وعالماً فسيحاً منفتحاً على رؤى كونية متفردة بالعجيب والغريب، وهذا شجع الروائيين على تضمين روايتهم بالأساطير، واستدعاء الموروث الثقافي الشفوي وتوثيقه في سياقات رواياتهم، إذ "إضفاء البعد الأسطوري لحكايات الصحراء مما يضمن بقاء الحكاية وانتشارها لأن الأسطورة تخرجها من الخصوصية التاريخية إلى العمومية والتجريد بحيث يجد فيها الجميع تعبيراً عن قناعاتهم وتطلعاتهم وتكريساً للقيم التي يؤمنون بها" (سعد العبد الله الصويان، بيروت 2010، ص 288)، فاستلهم الكوني الطاقات الإيجابية للحكايات التارقية وصنع منها متناً أنثروبولوجياً بامتياز، آمن الكوني أنه "على امتداد المتخيل السردي تقوم الذاكرة التاريخية بوظيفة الدفاع عن الذات الثقافية بمقوماتها الحضارية والوطنية" (فتحي بوخالفة، ص 74)، فجمع رواياته بين الفني والجمالي والميثولوجي والواقعي والرؤيوي.

روايات الكوني لا تكاد تخلو من الأساطير العجيبة، استنبطها من موروثه الثقافي الشفوي التارقي، إذ وردت الأساطير بشكل ملفت للانتباه في الكثير من رواياته، ولعل بعضها تضمنت أكثر من أسطورة، وقد جعل تلك الأساطير معبراً إلى إدراك حقيقة وجوه الإنسان الترقّي في منفاه الوجودي، ومن عمق أبعده

التي لا تزول رغم تقلبات العوالم الواقعية التي فرضت سيطرتها الإيدولوجية بشتى ألوأها، وقد كان للغة دورها المهم في اسعافه ليبرر موقفه الفني من توظيف اللغة ذات الرمزية "استعانة الكاتب باللغة الأسطورية ومضامينها السالفة والراهنة، هو نوع من البحث عن مساحات رحبة للحركة داخل مستويات النفس وطبقاتها، لأن الأسطورة بطبيعتها الهدمي، ولغتها المليئة بالثقوب تسمح لكل شيء بالدخول، وبشروطه أيضا ويعد هذا من نقاط تقاطع الأسطورة كجنس واللغة كاداة فنية" (محمد سالم ومحمد الأمين الطلبة ، لبنان 2008، ص236، 237)، فكل شيء تحول إلى أسطورة المعنى أسطوري واللغة أسطورية، والبعد الفني أسطوري. تضمنت رواية "المجوس" عديد الأساطير، منها "أسطورة واو" وأسطورة "جلد الثور" وأسطورة الإله "أمناي" وفيها تتعايش شخصيات آدمية مع أخرى أسطورية، وفيها ظل الكوني متوصلا مع الموروث الإنساني الميتافيزيقي، باحثا عن متاهات الحقيقة المحفورة في الذاكرة الجماعية للتوارق، مستأنسا بصور الصحراء الواقعية التي تستدعي أبجدياتها الميثولوجية الأنثروبولوجية الضاربة في أنطولوجيا الصحراء، فظهرت تلك الأساطير كعوالم تأسس ركنها المعنوي للوجود الإنساني.

أ- أسطورة واو :

هذه الأسطورة نسبة إلى مدينة "واو" وتعد التيمة الرئيسة لموضوع رواية "المجوس"، وهي تجسد الوظيفة السردية الكبرى التي تحرك الأفعال السردية وأدوارها، ومن خلالها يبحث عن العقيدة الصحراوية المشتركة بين أبناء الصحراء، هذه المدينة الفاضلة الفردوسية "واو الفردوسية الخفية التي لن تستطيع أن تجدها في ضلوع امرأة .. وهي أقرب .. من جبل الوريد" (المصدر نفسه: ص188). التي استحالت إلى ذكرى مفقودة يبحث عنها كل صحراوي أصيل "ومن متى لم يبحث عن واو؟" (المجوس: ص188)، فمخيلة الرجل الصحراوي تغوص في حلمها المفقود في واو، وكلهم عزم على بلوغ المرام في كشف الحجب عن هذا البعد الطرسي الغير قابل للتغيب أو النسيان. يقول "الزعيم" مخاطبا "الدرويش" "ستذهب معي الآن وستحدث عن واو. واو التي في صدر كل مخلوق و"واو الأخرى التي نبحث عنها في الصحراء الأبدية" (المجوس: ص187)، وهذه رسالة من الكوني لبني الصحراء يستوصي بهم بحثا عن واو الفردوسية الساكنة في ذواتهم، رغم بعدها الأزلي إلا أنها تظل تغذيهم طموحات وجودية، لعلها تسعفهم للوصول إلى حريتهم المنشودة. فهي فردوس الارتواء في صحراء الظمأ.

ب- أسطورة الإله "أمناي":

تتراكم الصور التخيلية لدى إبراهيم الكوني خصبة، فتعزز قدرة الكتابة والاستمرارية لديه، كونها مبطونة بالحكايات والخرافات والصور الفنية المسرحية في شساعة الصحراء، إذ شكلت مزيجاً من التنافر والتجاذب بين الروح والجسد بين الموجود والمفقود، بين الإقبال والتردد، بين القوة والضعف، اجتمعت المتناقضات داخل اللحظة الأسطورية التي أسسها الكوني، وقد تكون أسطورة "أمناي" إله "القبلي". وهو إله صحراوي نحتته الرياح "في فجّ بين أعلى جبلين شمال تينبكتو" المجوس ص 131. هذا الإله يظل ضارباً بجذوره في أعماق الصحراء يقيها من هجمات "القبلي" التي تهدد الصحراويّ بالموت ردماً بالتراب، فإله القبلي في الصحراء "أمناي" "إذا جاع وأراد القرابين أثار زوبعة واستدار بنصفه العلويّ كلّ إلى الخلف... ولن يتوقّف القبلي ويعود الإله إلى وضعه الطبيعيّ إلّا عندما يهرع أهل الصحراء ويلقون له في الهاوية بأجمل عذراء" (المجوس، ص 131)

وتنفرد العذراء بالبطولة في مواجهة غضب "أمناي"، وتصبح المنقذ للصحراويّ، تقيه من الانقراض، وتحميه من غضب الإله "أمناي". لذلك تعمّ الفرحة القبلية لميلادها وتنبعث زغاريد الفرح بقدمومها. تستمر الزغاريد على ثلاث دفعات ليعلم الأب أنّ القبيلة قد رزقت بعذراء صبيّة أنثى الدفعة الثالثة إشارة بمجيء يفرح لها الأب والقبيلة والسهل ورؤوس الجبال" (المجوس، ص 256). ونظراً لقدرة الصبيّة العذراء على ترويض الإله وإرضائه قدّسها الصحراويّ وبجلّها "من غير الأنثى أنقض الصحراويين من الانقراض؟ من غير الأنثى في الصحراء يستحقّ التبجيل ويعامل بالقداسة ويعبده الفرسان؟ من غيرك أيتها العذراء يستطيع أن يهوّن قساوة القبلي ويروّض وحشبة الصحراء؟" (المجوس، ص 256). ما يلاحظ على طرحه الأسطوري أنه يؤكد على طوطمية المرأة، وبعدها الوجودي، فهي تعني الولادة، تعني الاستمرار، تعني الوجود كله. وفي معرض حديثه عن الفتاة في رواية الربة الحجرية، نجده يستحضر طاقة المرأة الفاعلة في تمكين المجتمع من البقاء وبعثه من سكونه، هي فتاة حيّة قبل أن تُجسّد على الحجر. "يقول لها رجال القبيلة عند غياب البدر: "اكشفي عن وجهك يا "تامدورت، لأننا نريد أن نخلب نوقنا، والبدر غاب، فتكشف عن وجهها، وتضيء لهم ظلمات الليالي. فمن يرفض امرأة تضيء الصحراء بوجهها؟" (إبراهيم الكوني، بيروت، 1992، ص 11 (الربة الحجرية، ص 11) تتحول المرأة إلى معادل مطلق لتجليات الصحراء في الوجود.

خاتمة:

إن إشراف إبراهيم الكوني الفنية تبدو أكثر تماسا مع طموحه في الكشف عن المجهول، "أن السارد يعرض نفسه في أغلب الروايات التي كتبها إبراهيم الكوني باعتبار صانع سيرة الصحراء ومؤلفها. فهو يذ يروي حكايات ويقدم شخصيات بشرية أو غير بشرية ويعبر عن أحداً، ينما يكتب سيرة الصحراء. وإذ هو مؤلف السيرة وصانعها فإن صوت السرد يتجلى عالياً ويتحول إلى كائن لا نراه ولكننا نسمعه ونتبع أصداء صوته التي تهيمن على العالم الروائي. إن السارد في روايات إبراهيم الكوني يستبد بالنص وهو حاضر فيه حضوراً مستمراً. يرفض أن يختفي وراء شخصياته أو أن يوهم بذلك. فهو المتصرف في القول اللاعب بالسرد. وهو في النهاية في وضع مريح يتيح له حرية واسعة للتحرك وتحديد المسافات بينه وبين مرويّات يتعد ويقترّب. يرفع صوته ويخفضه. يضيق الرؤية ويوسعها"، إذ قدم تصورات عميقة لمفهوم الحياة وأبان عن فلسفة الإرادة والقوة اللازمة لتمكين الإنسان من البقاء والاستمرار، وفرض وجوده، ولا يحصل له ذلك ما لم يتجاوز مرحلة الصمت المقيت، ويواجه التحديات الصعاب التي تقض مضجعه، فيرمم ما فيه من حقيقة أنثولوجية تحيي ميراثه التليد الذي ورثه عن أسلافه، فيبلغ الإنسان مراده إذا وصل أصوله، وأسس أبنيته المعرفية والثقافية والدينية التي تحفظ له كرامته.

صارت يوتوبيا السرد ضرورة لازمة للإبداع لدى الكوني، فيه نابعة من قناعاته وتصورات، أصلها الأنطولوجي يسري في عروقه، لا يمكن أن ينسلخ عن إرادته الفنية الطامحة إلى جعل رمال الصحراء في الخيال اللاواقعي تسكن كل حرف من حروف رواياته، وتصبح لغة الرمال موازية لأصوات البشر وأنيهم، وتتحوّل المفازات المفتوحة على الآماد اللامتناهية إلى رمز لمحنة الحضور التعس في الحياة، إذ دخلت الصحراء عبر تجليات تصويرية، في التكوين الرؤيوي للنص الروائي لدى الكوني حين أدرك الطبيعة الممتدة في الانهائية، وهذا كفيل بنضجه الفني، وقد ظهر الكوني في روايته مدافعا على انتماءه، حيث فرض أنثولوجيا السلالة التارقية، وبث خصوصياتها الوجودية، إنطلاقاً من فهم واقعها الصحراوي، وإنارة التواصل التاريخي بعيداً عن التصادم الحضاري، وقد التفت إلى التكوين الميتافيزيقي الذي يؤسس لإيمانه المطلق في فضاء الصحراء، وتصوره اليوتوبي للصحراء جعله يخلق في خيال بعيد ليرسم أنماطاً سردية ترتقي بعمقها المعرفي والثقافي، وتمارس كينونتها الفنية في المطلق.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم الكوني، "القفص" مؤسسة رياض الريس للنشر ط1، 1990. قصة "مولد الترفاس"
- 2- إبراهيم الكوني، رواية "المجوس"، الدار الجماهيرية طرابلس ودار الآفاق الجديدة المغرب 1991، ط1
- 3- إبراهيم الكوني مملكة طفلة الرب (سيرة أنا الكوني بلسان الصمت)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005،
- 4- إبراهيم الكوني، ثوب لم يُدَنَّس بِسَمِّ الخياط (متون)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2012م
- 5- إبراهيم الكوني، الحسوف، رباعية روائية، الجزء الثالث: أخبار الطوفان الثاني، تاسيلي للنشر والإعلام/ دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، 1991.
- 6- إبراهيم الكوني، الورم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2008 م .
- 7- اسوالد اشبنغلر. تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة، بيروت
- 8 - رفيف رضا صيداوي : الرواية العربية بين الواقع والمختل، . دار الفارابي ، بيروت- لبنان ، ط1 ، 2008،
- 9- فتحي بوخالفة : التجربة الروائية المغاربية-دراسة في الفاعليات النصية وآليات القراءة ،عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1 ، 2010،
- 10- سعيد الغانمي "ملحمة الحدود القصوى" المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي ط1، 2000 الدار البيضاء المغرب.
- 11- سعد العبد إبراهيم الكوني، نزيل الحجر ، دار الريس للنشر، 1990
- 12- عبد الله إبراهيم ، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1 2005
- 13- عبد الله الصويان، الصحراء العربية ثقافتها وشعرها عبر العصور: قراءة أنثروبولوجية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ط1 بيروت 2010.
- 14- محمد سالم ومحمد الأمين الطلبة، مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر (دراسة نظرية تطبيقية في سيميائيات السرد) مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2008،